على هامش عدد «الآداب الخاص باتفاق غزة/أريحا

ثقافة تواجه فسادها!

مصطفى خضر

ـ ١ ـ

أفترضُ أوّلاً أنّ فساد سياسةٍ عربيّة حديثة أو شبه حديثةٍ هو من فساد مشروعِ ثقافة عربيّة حديثة أو شبه حديثة، وأنّ كلّه من بعضه، وبعضه من كلّه، وكلّه من كلّه!

ويلاحظ الجميع، نخباً وشبهَ نخب وعباداً وقوى وطبقاتٍ، أنّ انتماءهم إلى «التقدّم» أو «الثّورة» أو «العالم» كان قناعاً كتيماً وكثيفاً وزائفاً مَزَّقَتْهُ وقائعُ صادمةٌ في العالمِ قبل أن تمزّقه الوقائع في المكان العربيّ!

أليس فساد سياسةٍ سائدة من فسادِ ثقافةٍ شبه سائدة أو سائدة؟

ألم تتقنّع نظمٌ ومؤسّساتٌ ونخبٌ وقوى بأقنعة مختلفة لتلبس «أزياء» العلمنة والعلمانيّة والعلميّة والعقلانيّة والعقلنة والموضوعيّة والواقعيّة؟

ولِمَ انتهى مشروع نهضةٍ ثمّ مشروع حداثةٍ إلى حذف موضوعه العربي الكبير وإلغاء حضور الكتلة الاجتماعيّة الكبرى؟ وكيف يتحوّل نداءُ الدّيمقراطيّة إلى تقبّل التسلّط: تسلّطِ سلطة عربيّة متأخّرة، وتسلّطِ الآخر، العدوّ، الحديث والدّيمقراطي؟

هكذا تشحبُ يوتوبيا الكائن العربي البسيط والطيّب والحالم والفقير. ويعرف أنّه مازال «هو ـ هو» وإن لم يكن «هو» في الواقع. ويحتشد فضاءُ ثقافةٍ عربيّة بكلام «تابع» يخيّل إلى نُخَبه المبعثرة والمهشّمة أنّه ثقافة ومثاقفة وتفاعل ثقافي بينما هو استلاب وتغريب وتبعيّة..

وهكذا تراجع مشروعُ الهُويّة، أو يتراجع!

يتآكل مشروعُ أمّةٍ حاولت تكوين ذاتها، ويتهشّم مشروع مجتمعٍ حدّثته سلطةٌ نخبةٌ أو نخبةٌ ـ سلطة من خارج فحسب. فلم لا ينكر «الشّعبُ» الفقيرُ هذه النّخبةَ أو هذه السّلطة، وقد أنكرته خلاياها الحاكمة والمحكومةُ، الزّائفةُ والمزيّفةُ، العابثة والضّائعة؟ وكيف يواجه عوائدَ تقدّمها ونتاجات حداثتها؟

* * *

ومع ذلك، فقد كانت ثمّة «ثقافةٌ **تواجه** أخطارَ سياسة» بين كلّ عقد عربيّ وعقد آخر وبين كلّ مرحلة تاريخيّة وأخرى من زمن العرب التّابع الحديث. وكانت ثمّة ثقافةٌ **تنتج** أخطار سياسةٍ وثقافةٍ في آنٍ واحد، لتندغم السّياسة بالثّقافة والثّقافة بالسّياسة تبعاً لمصلحة شبه قوى تابعة ومتأخّرة تتقنّع بعلاقة شبهِ حديثةٍ مع عالم «عالمي» وحديث!

ويكتشف الكائنُ الإنساني العربي، الّذي حُطَّ به إلى شبه كائن، أنَّ أمكنته العربيّة بلا ثقافة وبلا سياسة، تدور في فلك مفهومات تابعة وموضوعات تابعة تحوّلت إلى نوعٍ من المراثي المكبوتة والمأخوذة والمقموعة أجّلت الوعي باللّحظة الذّاتيّة...

أفْلَسَ تجّارُ «دكاكين» سياسةٍ رسميّة وشبه رسميّة وغير رسميّة بالقدر الّذي أفلس فيه تجّارُ «دكاكين» ثقافةٍ احتشدت من قبل بكلّ أنواع الثّقافة، دون أن تكون قادرة على تكوين مشروعها الثقافي العربي المستقلّ!

أفْلستْ «الدّكاكين» كلّها: أمميّة وقوميّة ووطنيّة... شعبيّة وثوريّة ورجعيّة... سلفيّة وتقدميّة وحديثة...

شحبت المعاني الكبرى كلُّها، وذبلت المبادئ الكبرى كلّها أيضاً! هل ابتدأ عصرُ السّقوط العربي أم انتهى؟

تلغي الذّاتُ ذاتَها أمام قوّة حضور الآخر، وتتحوّل إلى مجرّد موضوع، وينْحَطُّ بها الآخرُ إلى موضوع بعد أن انحطّت بذاتها... وينتفي جدلُ الذّات مع الموضوع!

غياب الثّقافة يتداخل مع غياب السّياسة. وإن صعدت «أصوات» مضادة وبديلة تدحض، وتهجو، فقد هجمت «احتمالات» وتهجم احتمالات على الحياة العربيّة بأمكنتها وكائناتها ولغتها وعلاقاتها...

* * *

هل يدعو اتفاقُ غزّة ـ أريحا إلى هذا اليأس كلّه؟ وهل يكشف ما لم يُكْشَفْ؟ وأيّ حجاب لم ينكشف من قبل؟

أيهدّد اتفاق غزّة ـ أريحا باقتتال داخليّ، وقد توالد أكثرُ من اقتتال عربي ـ عربي وعربي فلسطيني وفلسطيني فلسطيني من قبلُ ومن بعد؟

أهو احتمال أم فرضيّة، واقع أم تنبّؤ: غلبة البنية الاقتصادية الإسرائيليّة على أنواعٍ من الاقتصاد غير عربيّة وغير قوميّة وغير وطنيّة؟

وكم «انقسم البيت العربي بيتين» من قبل!

فهل الانقسام العربيّ القابل انقسامٌ من نوع آخر؟ انقسمت قوى ولا قوى! وتهشمت أحزاب، ولا أحزاب! وتكسّرت منظّمات عربيّة وفلسطينيّة، ولا منظّمات...

جمهرات ودويلات وكيانات وقوى تصرّح أناشيدها بأنّ مجتمعاً عربيّاً يحاول أن ينشأ فلا ينشأ...

انقسام مجتمعي في العمق... فمن أين يبتدئ مجتمع مدني؟ هكذا يعلن الأداء العربي، في تفاعله الإيجابي والسلبي مع الأداء الفلسطيني المستقلّ وغير المستقلّ، مضمونات وأشكالاً وإعلاناتٍ لمبادئ لم يظهر منها إلاّ «إعلان المبادئ» حتّى الآن!

لنعترف إذاً أنّ «الواقع العربي مؤهّل بامتياز، ومنذ زمن غير قصير لتمرير هذا النّوع من الاتفاقات، ومن دون معارضة حقيقيّة فاعلة» (ص ٢٥).

ولا يكفي أن يسوّغ هذا السّقوط العربي بأنّ «المسؤولين في منظّمة التّحرير الفلسطينيّة قد أصابهم التّعب أو الملل بعد سنوات طويلة من الكفاح» (ص ٣١).

كما أنّ اتفاق «غزّة ـ أريحا» ليس «خدعة وخطيئة» فحسب (ص ٣٨)(*).

ـ ٢ ـ

يرى د. سماح ادريس أنّ «اتفاق غزّة ـ أريحا نقطة انطلاق إسرائيل الكبرى اقتصاديّاً لا نقطة انطلاق الدّولة الفلسطينيّة، وهو نقطة انطلاق مشروع الأمم الشّرق أوسطيّة لا نقطة انطلاق الدّولة العربيّة» (ص ٩).

إنّه حلقة من سلسلة برنامج «إسرائيل» الذّهبيّة في الوجود... تتكامل به وتشتدّ تكويناً.. ولا دولة فلسطينيّة ولا دولة عربيّة!

ولكنْ، هل الهيئات الشّرعيّة الفلسطينيّة هي هيئات «شرعيّة» ليتمّ الاتفاق «من وراء ظهرها» على حدّ تعبير ادريس؟

وهل تمّ توقيع هذه الاتفاقيّة «بمعزل عن المؤسّسات الشّرعيّة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة» (ص ١٨)، كما يرى شفيق الحوت؟ أيّة مؤسّسة؟ وأيّة مؤسّسات؟ وأيّة شرعيّة؟

ألا يعبّر الاتفاق بشكل صريح أو مضمر عن «خرَاب» المؤسّسة الفلسطينيّة والمؤسّسة العربيّة، شرعيّة أو غير شرعيّة من الدّاخل ومن الخارج في آنٍ واحد؟

ألم تكن القيادة السّياسة تكتفي دائماً باقتناعها بخططها المرحليّة؟ (ص ١٠).

(*) المقتطفات تعود إلى مقالات كريم مروّة، د. محمّد المجذوب، وأحمد اليماني على التّوالي (الآداب).

وما جدوى معارضة «كميّة» فاعلة وغير فاعلة مادامت «مفكّكة»، وبعضها متناحر، ولا تملك مشروعاً كلّياً واحداً؟

وما قيمتها الكمّيّة والنّوعيّة إذا كانت ملاحظة د. أنيس صايغ الصّائبة تفيد «بأنّ العالم بأسره تقريباً يؤيّد سياسة الانحراف الفلسطينيّة ويعمل لها ويباركها ويتعهّدها»...؟ (ص ٢٠).

يؤهّل الواقع العربي «لتمرير هذا النّوع من الاتفاقات... بل هو واقع لا تتوافر فيه إمكانيّات لتقديم بدائل نقيضة قادرة على إثبات وجودها» (ص ٢٥) كما يقرّر كريم مروّة.

ولذلك يصدق استنتاج شفيق الحوت: «ضرورة العودة بالقضايا العربيّة، لا بقضيّة فلسطين وحدها، إلى المستوى القومي» (ص ١٩). فقد يغدو اتفاق غزّة ـ أريحا حقبة جديدة أو حلقة من حلقات الصّراع!

لتكن عودةٌ إلى الموضوع العربيّ الكبير بمبادئه الكبرى وبأهدافه الكبرى.

أليست دعوة د. أنيس صايغ إلى «إحياء القاموس القديم» هي الدّعوة الواجبة والممكنة؟

إنّ إحياء المبادئ القوميّة الكبرى في وجدان النّخبة العربيّة وشغلها قد يساعد في تأمّل السّقوط العربي ونقده، بعد أن تعثّرت محاولةُ وعي ذاتي بين شعارات العلمنة والعلميّة والعلمانيّة والثّوريّة والتقدّم والحداثة والعقلنة والعقلانيّة، دون أن تتداخل مع عناصر «فكريّة» عربيّة ناشئة، أو تندغم بمواد مشروع ثقافي عربي مستقلّ يصنع زمنه الذّاتي في داخل زمن العالم بدلاً من أن يكون ملحقاً به وتابعاً له.

إنّ صرخة عادلة وبريئة ومنتمية كصرخة د. أنيس صايغ هي مدخل من مداخل العودة إلى الموضوع العربي بسؤاله القومي الكبير الّذي ينتمي إلى هويّة، ويعمل من أجلها... يقول د. صايغ: «أُصِرُّ على حقّي بالعودة إلى طبريّة. ولئن سُلبت هذا الحقّ فإنّي سأعمل لكي يستردّه أولادي وأحفادي...» (ص ٢٤).

ولذلك «فليس لنا إلاّ أن نُفْرِغ شعاراتنا وكلماتنا الحبيبة ممّا ملأه قامعونا زيْفاً وبهتاناً»... (ص ١٢) كما يقول د. سماح ادريس.

أيّة ثقافة تواجه أخطار سياسة، وقد فسد الكلام، و«فقد النّاس ثقتهم به» (ص ١٢)؟

فسدت المؤسّسة القديمة والجديدة والثّقافة الشّائعة والمضادّة والبديلة!

يرى أحمد اليماني أنّ «الفعل الذّاتي، والتمسّك بالمبادئ، هما البديل عن الانهيار والتّسليم بشروط العدوّ المذلّة» (ص ٣٩)، ويدعو المثقّفين والمفكّرين العرب، أو يجدهم مدعوّين اليوم قبل الغد إلى «البدء الفوريّ بالدّعوة والعمل لإقامة جبهة عريضة جادّة...» (ص ٣٩).

ويجد حبيب صادق في مشهد «الاتفاق ـ الصّفقة» على حدّ تعبيره «الوجع الشّاهد على نهاية فصل من فصول الصّراع وبداية آخر»؛ وهو الوجع الدّاعي إلى «تحدّي الواقع العربي في لحظة اهترائه القصوى، باجتراح عمليّة تغييره؛ وتحدّي القرار الأمريكي ـ الصهيوني، في ذروة غطرسته، برفع قرار المواجهة الشّاملة...» (ص ٤١).

هكذا يستعيد الموضوع العربي لَحْظَتَهُ الأولى ثقافةً وسياسةً!

ـ ٣ ـ

لم يزل **الموضوع العربي** إذاً هو الموضوع **الرئيس** في المشروع الثّقافي العربي على الرّغم من مظاهر الاستلاب وظواهره الّتي تتقنّع بالحداثة والتّحديث و«العالميّة» و«العولمة» في بعض أنموذجاتها، أو تحتفل بالانفتاح على العالم وتفجّره المعرفيّ وغسقه الاستهلاكي في أنموذجات أخرى...

قد تستبعد وقائعُ صادقةٌ الموضوعَ العربي بين مرحلة وأخرى، فيُلاَحَظ أنَّ مفهوماته ذُبُلَتْ ومبادئه شحبتْ وقيمَه تراجعتْ، وأنَّه لا يمتلك القدرة على مجابهة مؤثّرات خارجيّة

وداخليّة ضاغطة تؤدّي إلى تآكله. وقد يُعَامَل كموضوع قديم وذكرى قديمة أو شعار اعتيادي يقتضي التّفاعلُ في الزّمان والمكان تجاوزَه وتخطّيه.

لكنْ.. لا تلبث الحياةُ، حياةُ البشر الواقعيّين، أن تستعيد الموضوعَ العربي، وتفترض تأمّله وامتلاكه ووعيه من داخل رؤية حيّة وممارسة ملهمة وفعّالة!

ألم يحمل مشروعُ النّهضة العربيّة الأولى جملةً من القيم الكبرى أعلنت أملها في التّوحيد والتّجديد والتحرّر والعدالة، وإن تعدّدت تيّارات، وتنوّعت اتجاهات، واختلفت ميول في موقفها من قضايا الوجود القومي والمصير القومي والهويّة القوميّة وتقدّم المجتمع والعلاقة مع العالم والآخر في العالم؟

ألم تساعد تلك القيمُ الكبرى على إحياء ذاكرة تاريخيّة في مشروع ثقافي عربي لم يكتمل بعد، أو لم يُنجَزْ لأنّ عوامل موضوعيّة وذاتيّة تدخّلت في نزفه وتوقّفه؟.. ولكن تلك القيم لم تزل ذات معنى وتمارس حضورها في العلاقة بين الماضي والحاضر والتّاريخ والواقع والقديم والجديد والذّات والآخر...

وكأنّ الموضوع العربي يعبّر بقوّة، عن الأمل القومي أو الحلم القوميّ في الفكر والنّقد والإبداع، ويحفز على الانتماء في كلّ مواجهة، ويدفع إلى وعي الذّات في كلّ مجابهة، ليرتقي بالممارسة أيضاً! إنّه موضوع الهويّة، يتفاعل مع الوجود، ويندغم به، وتنعكس تجلّياته في مشروع ثقافي قومي ينقطع، ويتّصل، بشكل مباشر أو غير مباشر سواء استكشفت النّوايا الطيّبة أو غير الطيّبة حضورَه أم تجاهلته بحثاً عن موضوع مختلف ومؤقت وطارئ!

وبين حداثة السّياسة وسياسة الحداثة وحداثة الثّقافة وثقافة الحداثة يَستكشف سؤالُ ثقافةٍ عربيّةٍ غائبةِ الشّروطَ والأوضاع الّتي توفّر ذاتيّته واستقلاله، ليكون مؤثّراً في حياة الجماعة القوميّة وتفكيرها ووجدانها، وبخاصّة بعد أن شاعت أقنعةٌ ثقافيّة تجد في الغزو الثّقافي تواصلاً وتجعل من التّبعيّة تفاعلاً وتتكيّف معهما بأسلوبها الخاصّ، واهمةً أنّها تلحق بالعالم، وهي تلتحق به، وتمتلك أدوات ذلك الغزو، فتخدم تعميم أنموذجه دون أن تعيه، وتشيعه بدلاً من أن تجابهه.. وقد تنظّر الآن أو فيما بعد لـ «تطبيع» الثّقافة كحوار عادل يبنيه موقف حضاري من الآخر الّذي تتجاهل أهدافه، لتجهل هويّتها الثّقافيّة!

هل تدعونا هزيمة السّياسة ـ الثّقافة أو الثّقافة ـ السّياسة إلى أن نبحث عن الزّمن الثّقافي العربي المستقلّ من داخل زمن العالم؟ ألا يتطلّب الوعي الذّاتي حضور الموضوع العربيّ، ليشكّل فيه سؤالُ الهويّة سؤالاً يندغم بسؤال الوجود العربي والوعي به، لا سؤالاً يحاور قضايا الأصالة والتّأصيل فحسب؟

وقد نلتقي لحظةَ الأمل من داخل لحظة السّقوط العربي!

المشروع الثّقافي الذّاتي والمستقلّ...
وعي اللّحظة الذّاتيّة...

الحضور الثّقافي الشّاقّ والكثيف لفرق عملٍ ثقافيّة قوميّة توجّهها الأهداف الكبرى والمبادئ الكبرى...
هذا جزء من حلم، أو جزء من أمل!
فكيف نواجه عصر الموت العربيّ؟

حمص

المسافرة

(رواية)

شوقي بغدادي

دار الآداب

وادي الحوارث

(رواية)

توفيق فياض

دار الآداب